## الفصل الثالث

# الطقوس التي تتميّز بها أديان الشعوب البدائية

### الطقوس

لا يوجد دين بلا طقوس فهي من مستلزمات الدين، وتتجلى العبادة بإجراء الطقوس، وتضع الأساطير بعض أسس الطقوس ومظاهرها، ويستمر أداء الطقوس لأن الأسطورة أكدت إجراءها فيما مضى. وقد أوضح الأستاذ «موريس لينهارت» أهمية الطقوس لدى البدائيين فقال: «إن الطقوس تؤيد الاحتياج الذي يجعل الإنسان والطبيعة يتعاونان. والطقوس أسلوب من التعبير للنفوذ في العالم الذي لا يخضع للتجربة». إن البدائي لا يشك في أنه يؤثر بنفسه في خصوبة الحقل حينما يؤدي المراسم الدينية لهذا الغرض، ولا يشك كذلك في أنه يؤثر في نوع الطوطم حينما يحاكي مظهر الطوطم بالزينة والدهان والحركة فينتقل إليه ويتمثل به كأنما أصبح هو والطوطم شيئاً واحداً[*]. وحينما تجود الأرض الأم وتعطي ثمرتها فإنها تعيد إلى البدائي ما قدمه قبلاً إليها. فيغدو ذلك بمثابة تبادل تقديم الغذاء بينهما. ويشاهد هذا نوعاً ما في عرف شائع في جزيرة (كيوائي) حين يحتفل الناس بالعيد المكرس لتجميد خصوبة البساتين. ورجولة الفتيان الذين اطّلعوا على الأسرار يعتبرون رفض

---

[*] الطوطم رمز للإله أو المبدأ الحيوي للمجتمع، والطوطمية تشير إلى نوع من العبادة لحيوان أو نبات أو جماد يعتقد أن الأسلاف قد انحدروا منه وتجسدت فيه روح العشيرة أو القبيلة.



obeikandl.com

(الساجوا) إهانة للأخ البكر لأن الساجوا مثيل للأقرباء القدامى الذين قتلوا وأوكلو لينقلوا إلى أحفادهم قوة جدهم الأسطوري. إن هذا الاتصال بين الناس والبطل الأسطوري يدل على استمرار الاتحاد بينهما وما الطقوس التي تقام من أجل ذلك إلا لغرض تحقيق الاتحاد.

ولكن الطبيعة بالأصل متغيرة وهي تصرف عطاياها بغير انتظام مما يسبب العذاب للإنسان في الأغلب. لذلك نراه ينظر إليها ويحاول إقناعها بأن تجود عليه بما يتوقعه منها، فالبحارة في بحر المرجان إذا بوغتوا بهدوء البحر يوقعون أصواتاً إلى جانب الزورق ويصفرون ساعات عديدة يستدعون بهذا العمل الريح التي قد لا تتأخر عن الهبوب. وبهذه الطريقة وأمثالها يتوجه البشر إلى الطبيعة ويبدون لها ما يرغبون فيه بتمثيل الأسطورة وتكرارها، إذ يعتقدون بأنه لا بد أن تتحقق. ولأجل استنزال المطر يلتحف شيوخ الأرونتا ويغطون رؤوسهم بزغب يمثل صورة السحاب. ويوقع الفتيان إيقاعاً بمصادمة الأغصان يستدعون به الريح لتكون فاتحة وابل المطر. ويسقي الرجال بدمائهم (الشورنجا) التي تمثل الجد الذي يمجدونه ذاكرين كيف كان، ومنوهين بعهده الذي كانت فيه نعم الأمطار فياضة. وبذلك تكون الأسطورة قد أعيد بناؤها - الرغبة والصورة والرسم الحي، حيث يعرض الناس على الطبيعة العمل المرغوب فيه وتغدو الصورة غير ذات وضوح إذا جاز للإنسان لغة غنية يستطيع بها أن ينال مراده بالكلمات التي يعرف كيف يتلفظها والكلام يضمن له حقيقة ما يعبر عنه، وبالكلام يستغني عن الإيماءات، إذ تقوم مراسم قديمة معقدة بحرق الأشواك. إن الرقية هي الطقس الرئيسي عند البولينيزيين، ويُعرف الدور الذي تلعبه في سحر الشعوب الأكثر تقدماً. وكما أن الكلام يتعدى الحياة فكذلك باستطاعته أن يحطمها ويفنيها، واللعنة بنظر البدائي واقعة لا شك فيها فيعتقد بأنه لن يعيش بعدها. والاعتراف بمخالفة يجعلها بمثابة لا شيء. والعادة هذه شائعة لدى عدد كبير من الشعوب البدائية بوصفها علاجاً ملطفاً ضد ضرر المرض والتعاسة، وهكذا يرجع الطقس الشفوي إلى مجموعة أحكام سعد أو شؤم. ومع ذلك فإنه لمن العسير أن يتمنى المرء أن تسير الأمور بانتظام إذا لم يكن هو نفسه خاضعاً للنظام الاجتماعي. ومن هنا نشأت حالات العفة والصوم والإمساك عن الطعام وغيرها من

الحالات التي كونت شعائر التطهير والتقديس والتكريس، وفضلاً عن ذلك فإن لهذه الشعائر أشكالاً إيجابية، مثال ذلك أن الاتصال الجنسي بين أزواج شرعيين يعتبر في إفريقيا رمزاً لبناء قرية، وبعكس ذلك يهدم الاتصال غير الشرعي كل شيء ويخل بالنظام وكان من أمر ذلك أن الزنا والسفاح كان سبباً لكثير من التبدلات ووضع الأنظمة الجديدة.

إن الاتصال بالعالم الخارجي في مجال التجربة وبالمخلوقات غير الشخصية يتطلّب وسائل الاتحاد بها التي تضمن نتائجه. مثال ذلك أن قبائل البنانز في جنوبي إفريقيا تستعمل التراب الأبيض(*) للاتصال بالأجداد، ويطلي رجال البكاكة سيقانهم وأهل موزامبيق رؤوسهم به. وهناك رقص إفريقي معروف، إذ يرقص الناس وأجسادهم مطلية ببياض. وفي (مانن جومبا) في الكاميرون توضع أنبوبة في فم الميت المدفون على عمق بضع سنتميترات من أرض البيت يتلقى الناس لعاب الميت. أما في الغابون فيضع الغابوني عصا في التراب الأبيض ويجعلها في فم الميت وبذلك يتشرب التراب بكل ما ينبثق من الميت، ويعتقد الغابوني أن هذا التراب غدا دواء لأنه اختلط بالجد وأمسى هو في اتحاد مع الجد ويسمع نداءه ويتلقى نصحه. والتبغ أساس الحياة الطقسية لدى «الكرولو» *Crolo* في أمريكا ولدى الشامان في سيبيريا والغابون.

يرمي الناس في الماء أمعاء أول سمكة اصطادوها وبذلك يظهرون احترامهم وتبجيلهم لقوى الماء، مقربين لها جزءاً مما نالوه. وفي جميع التقدمات وعند توزيع الطعام يخصص جزء منها بصورة عامة إلى الأرواح فتوضع حصتها إلى جانب أو فوق متكأ صغير. ولا يجوز تقديم التقدمة في الأغلب إلا فوق قطعة مصنوعة من حشيش سحري أو فوق حصير. وليست هذه التقدمات البسيطة سوى قرابين، ومن الطقوس سكب نبيذ النخيل فوق القبر السوداني وبذلك يصبح شراباً مقدساً. والبيت الناعوري في نيوزيلندا يكرس بضحية بشرية تدفن تحت العمود الرئيسي. والزوارق والأكواخ في باروتسلاند تحتاج إلى رش دم ينفجر من أصابع طفل قلعت أظافره تبركاً[1].

---

(*) التراب الأبيض مقدس لأنه يحتوي على بقايا العظام التي أصبحت رميماً ويعتبر من المواد الطبية.

(1) طه الهاشمي: تاريخ الأديان وفلسفتها، مرجع سابق، ص 217-219 .

## الدعـــاء أو الصـــلاة (*)

يعرّف «تايلور» *Tylor* الصلاة بأنها: «الرغبة الصادقة للروح سواء تفوه بها إنسان أو لم يتفوه» فهي من هذه الناحية أشبه بحديث بين روحين. وبما أن الدعاء يوجه إلى الأرواح البشرية سواء كانت تركت أجسادها أو تألهت فإنه يعتبر مجرد امتداد للصلاة اليومية القائمة بين البشر. ويظل التماثل قائماً حتى في الحالات التي يتجلى فيها الشخص في صلاته إلى إحدى الأرواح العظمى، أو إلى أحد الكائنات الروحية. ولا يغير من ذلك أن لهذه الكائنات الروحية الخالصة قوى كبيرة هائلة تفوق بكثير قوة روح الفرد وتتعالى عليها. واعتبار الدعاء عملاً موجهاً إلى الآلهة أو الأرواح أو تخاطباً بين النفس الإنسانية والكائنات الروحية هو الذي يربط الدعاء بالنظرية الروحية. وليس من شك في أن الدعاء كان معروفاً في كل المجتمعات المتأخرة في المراحل الأولى. ولم يكن الدعاء يهدف في الأصل إلى أي أهداف أو أغراض خلقية، بل كان يتعلق بمطالب الناس من الأرواح.

فالزولو مثلاً يخاطبون أجدادهم طالبين منهم العون والثروة والصحة والنجاح، ويعتقدون أن مجرد التفوه بأسماء هؤلاء الأجداد يوحي إلى أرواحهم بما يرغبون، إذ للأرواح قدرة خارقة على التعرف بشكل تلقائي بما يدور في خلد الناس وأذهانهم حين يتوجهون بالدعاء إليها حتى أن الزولو يفضلون ألا يتفوهوا برغباتهم فكثيراً ما يخطئ المرء في معرفة أين توجد منفعته، وإنما يكتفون بأن يطلبوا من الأرواح أن تمنحهم ما تعتقد بأن فيه خيرهم وصلاحهم تاركين لها ولقوتها العاقلة الكبرى وحكمتها المتناهية أمر تحديد هذا الخير والصلاح... ومعظم صيغ الصلاة الموجودة عند الشعوب البدائية بسيطة وقصيرة لا تتعدى كلمة أو بضع كلمات. كأن يتضرع الرجل - كما هو الحال عند الزولو «يا أهل بيتنا» ويعتبرون هذه العبارة الغامضة الموجزة صلاة كاملة تنقل إلى أرواح الأجداد كل رغباتهم - أو يصيح الرجل قائلاً (بقرة) أو (أولاد) حين يسعل مثلاً ويعتبر هذه الصلاة مستجابة للأرواح التي توجد بكثرة حين السعال. ولكن الصيغ التي تستخدم في الصلاة تتعقد في العادة بتعقد تصورات الناس عن الأرواح وعن وجود الإله الأعلى، كما تتعقد مطالبهم بتقدم

(*) يستعمل الغربيون كلمة واحدة للتعبير عن الدعاء والصلاة وفي نظرهم أن الدعاء والصلاة شيء واحد.

الحضارة. ولكن الصلاة كما تظهر في الشعوب المتأخرة تعكس على العموم كثيراً من ملامح الصلاة في الشعوب الأكثر تقدماً فعلى الرغم من التقدم الحضاري الهائل الذي أحرزته البشرية في تاريخها الطويل فإن الإنسان ما يزال يستخدم في صلاته صيغاً ويطلب مطالب أشبه بالصيغ والمطالب التي توجد عند الشعوب البدائية. فإذا كان الرجل البدائي يطلب بقرة أو ولداً أو أرزاً وفيراً مثلاً، فإن المتحضر يسأل أن يتحسن الجو كما يطلب الأذى للأعداء ويلتمس طول العمر والصحة والسعادة للأصدقاء[1].

## طقوس المرور

إن الفرد حين ولادته يعتبر غير موجود اجتماعياً، والطقوس هي التي تستدعيه إلى الوجود فيسمى باسم حيوان أو اسم آخر. وبهذه التسمية يصبح صورة شخصية جديدة معينة. والمرور من سن الصبا إلى سن البلوغ يتطلّب بصورة عامة طقوساً عديدة تسمى مراسم الإرشاد أو الاطلاع على الأسرار، وحين يصل الشاب سن البلوغ يقتضي إرشاده بإطلاعه على الأسرار. وذلك بتلقينه إياها في اجتماع سري يحضره الشيوخ. ومع ذلك فإن الانتماء إلى جمعية البالغين لا يعني إطلاقاً أنه ينتمي إلى البالغين الذين يحيطون به، إنما يعني الانتماء أيضاً إلى الموتى الذين يعيش معهم. وبعد أن يلقن الأسرار يُسمح له بأن يقضي وقته في مشاغل القبيلة المحلية، والاشتراك في الاحتفالات الدينية. وقبل إجراء مراسم تلقين الأسرار يجب على الشاب أن يختار بعض الاختبارات البدنية الشاقة كالصوم والختان وكسر الأنياب وقلعها واستنزاف الدم ...إلخ، وفي غينيا الجديدة يضعونه في بلعوم الغول المصنوع من لحاف الشجر، بينما يرقص الناس، ثم يجرونه، وبذلك يرمزون إلى الجد الأسطوري والطوطم قد ابتلعهما الغول وبعثا إلى حياة جديدة. وفي إفريقيا يطلون الشباب المرشحين لحفلات الإرشاد بتراب أبيض يمثل الموتى، ويقصد بهذه الاحتفالات الشاقة معرفة مدى تحمل الشاب للألم ليستحق أن يكون عضواً في جماعة البالغين المطّلعين على الأسرار.

---

[1] د. أحمد أبو زيد: تايلور، دار المعارف - القاهرة 1959، ص 72-73.

وهناك احتفالات أخرى ورقص للحصول على المطر والخصوبة في الحيوان والنبات، وكذلك تجري الاحتفالات للفوز بالنصر في القتال. وتوجد احتفالات خاصة بالانتماء للجمعيات السرية في بولينيزيا وميلانيزيا، ولاسيما في إفريقيا الغربية وفي محلات أخرى. وليس لهذه الجمعيات شأن من الناحية السحرية والدينية فحسب، بل من الناحية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وثمة طقوس أخرى تسمى طقوس الافتراق، كناية عن افتراق الميت عن الأحياء، تجري في حالة الموت.

## السحـــرة والكهنـــة

ويعتقد البدائيون أن المطبب والساحر الموهوبين بالمانا يملكان قدرة تكاد تكون غير محدودة. فيستطيع الساحر أن يقتل عدوه من بعيد بمجرد أن يومي إليه بعصاه، وبوسعه أن يشفي المريض من بعيد، ويكشف عن المجرم، ويقدر على تقييد العاصفة وينزل المطر ويطلب إلى الشمس أن تنشر نورها وأن تمنح البركة والخصوبة.

إن مزاولة الأعمال السحرية من اختصاص الطاعنين بالسن من الرجال والنساء، والمرء الخبير والكفؤ، وهو من وهب القوة القادرة أو الذي يمت بصلة خفية بالقوة القادرة، فيحوز قابليات وطاقات لا حصر لها، وبذلك يمكنه أن يكون كاهناً أو ملكاً وقاضياً ومطبباً وصاحب صنعة في الوقت نفسه. وما دام هذا الشخص يستخدم قابلياته الثمينة في صالح الجماعة فإنه يتبوأ أعلى مرتبة من مراتب الشرف ولكنه يرتكب أعظم جريمة إذا هو استغل قابلياته في سبيل منفعته الشخصية، أو ضد أبناء جماعته مدفوعاً بدافع الغيرة والحسد. ولذلك جعل الدين السحرة الذين يمارسون السحر الأسود (السحر الضار) من ألد أعداء الجماعة فإذا بوغت الساحر وهو يستخدم السحر الأسود يعاقب فوراً بالخنق[1].

---

[1] طه الهاشمي: تاريخ الأديان وفلسفتها، ص 234 - 236 .